﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزّمر: 49]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الرّبطُ بين وقوع العذابِ ويقينِه، وبين نُكران الإنسانِ لنعَمِ الرّحمان

حكَى اللّهُ ﷻ بعضَ قبائحِ المشركينَ، وذكرَ عاقبتَها، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بحكايةِ نوعٍ آخرَ مِنَ القبائحِ، وهو أنَّهم عندَ الوقوعِ في الضُّرِّ يَفزعونَ إلى اللّهِ، وفي حالِ النِّعمةِ يزعمونَ أنَّ حصولَ ذلكَ بكسبِهم[1]. وهذا على أنَّ المرادَ بالإنسانِ الكافرُ. ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ مُطلَقَ الإنسانِ، ووجهُ التَّناسبِ: أنَّهُ تعالى أخبرَ عن وعيدِهِ للمشركينَ، ثمَّ أخبرَ عن حالِ مُطلَقِ الإنسانِ، وأنَّ جِبلَّتَهُ على أنَّهُ إذا مسَّهُ الضُّرُّ رجعَ إلى اللّهِ، وإذا مسَّهُ الخيرُ أظهرَ البَطَرَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: (مسس) أصلٌ يدلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[3]، ويقالُ مجازًا: مسَّهُ الكِبَرُ والمرضُ، ومسَّهُ العذابُ[4]، وكُنِيَ بالمسِّ عنِ الوطءِ، فقيلَ: مسَّها وماسَّها[5]. وحكى أبو عبيدةَ: مسستُ الشّيءَ بالفتح أمسُّه بالضّم. وربّما قالوا مست الشّيء يحذفون منه السّين الأولى ويحوّلون كسرتَها إلى الميم، ومنهم مَن لا يحوّلُ ويتركُ الميمَ على حالها مفتوحةً[6]، والمُرادُ بالمَسِّ هنا: الإصابةُ[7].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 9، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 527، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 30.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 404.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مسس).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (مسس).
(5) الرّاغب، المفردات: (مسس).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (مسس).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 303.

2) ﴿ضُرٌّ﴾: (ضرر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ النَّفْعِ[1]، ومِنْ ذلكَ: الضُّرُّ، وهو سوءُ الحالِ، إمّا في النَّفْسِ لقلَّةِ العِلمِ والفضلِ، وإمّا في البَدَنِ لعدمِ جارحةٍ أو نقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ مِنْ قلَّةِ مالٍ وجاهٍ[2]. والمرادُ به هنا: ما يصيبُهم مِنْ مرضٍ وفقرٍ ونحوِ ذلكَ[3].

3) ﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾: (خول) أصلٌ يدلُّ على تعهُّدِ الشَّيءِ[4]، ومِنْ ذلكَ: الخائلُ، وهو الحافظُ للشَّيءِ[5]، والتَّخويلُ في الأصلِ: إعطاءُ الخَوَلِ - وهو الأتباعُ والرُّعاةُ والزُّرّاعُ - أو إعطاءُ ما يصيرُ لهُ خَوَلًا، أو إعطاءُ ما يحتاجُ أنْ يتعهَّدَهُ[6]. والمرادُ بالتَّخويلِ هنا: الإعطاءُ عن غيرِ مجازاةٍ.

4) ﴿عِلْمٍۚ﴾: (علم) أصلٌ يدلُّ على نقيضِ الجهلِ[7]، علِمَ فهو عالِمٌ وعليمٌ، على المبالغة، وعَلّام، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: 109][8]، والعلمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِهِ[9]، والعالِمُ: ضدُّ الجاهلِ، والجمعُ: علماءُ.

5) ﴿فِتْنَةٌ﴾: (فتن) أصلٌ يدلُّ على الابتلاءِ والاختبارِ[10]، ومِنْ ذلكَ: الفَتْنُ، وهو إدخالُ الذَّهَبِ النّارَ؛ لتظهرَ جَوْدتُهُ مِنْ رداءتِهِ[11]، والفَتّانُ: الصّائغُ؛ لإذابتِهِ الذَّهَبَ والفِضَّةَ في النّارِ[12]، والفِتْنةُ: اضطرابُ الحالِ وقَلَقُ البالِ مِنْ حدوثِ شرٍّ لا مَدْفَعَ لهُ[13]، والفِتْنةُ أيضًا: الضَّلالُ، والإثمُ والمعصيةُ[14]. والمرادُ بها هنا: الاختبارُ والابتلاءُ والامتحانُ[15].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضرر).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 18.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خول).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (خول).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خول).
(7) الخليل، العين: (علم).
(8) الحميريّ، شمس العلوم: (علم).
(9) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (علم).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (فتن).
(12) الزّبيديّ، تاج العروس: (فتن).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 213.
(14) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فتن).
(15) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 18.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنسانُ مُقبِلٌ في الشِّدَّةِ على الله، مُعرِضٌ في الرَّخاءِ عن مولاه

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن حالِ الإنسانِ معَ ربِّهِ في حالتَيِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، فيقولُ: فإذا أصابَ الإنسانَ بُؤسٌ وشدَّةٌ دعانا مستغيثًا بنا؛ لنكشفَ عنهُ ما أصابَهُ، ثمَّ إذا كشَفْنا ما بهِ مِنَ الضُّرِّ والبُؤسِ، وأبدَلْناهُ بذلكَ رخاءً وسَعَةً، وصحَّةً وعافيةً؛ قالَ: إنَّما أُعطيتُ الَّذي أُعطيتُ بسببِ علمي وقُدرتي. ثمَّ يقولُ تعالى في الرَّدِّ على هذا الجاحدِ: ليسَتْ هذهِ النِّعمةُ بسببِ قدرتِكَ وعلمِكَ، بل هي ابتلاءٌ واختبارٌ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ يجهلونَ ذلكَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرفِ الفاءِ في ﴿فَإِذَا﴾:

بيانُ تناقضِ المشركينَ وسَفَهِ رأيِهم

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ أنَّ ما في هذهِ الآيةِ مُسبَّبٌ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزّمر: 45]، والمعنى: أنَّهم يشمئزّونَ عن ذكرِ اللهِ، ويَستبشرونَ بذكرِ الآلهةِ، فإذا مسَّ أحدَهم ضرٌّ دعا مَنِ اشمأزَّ مِنْ ذكرِهِ، دونَ مَنِ استبشرَ بذكرِهِ، وما بينَهما مِنَ الآيِ اعتراضٌ[2]. ونكتةُ التَّسبُّبِ: أنَّهم لشدَّةِ عنادِهم وإبائِهم عنِ الحقِّ كأنَّهم جعلوا اشمئزازَهم عن ذكرِ اللهِ وحدَهُ، واستبشارَهم بذكرِ غيرِهِ غرضًا، في أنْ إذا مسَّهم ضرٌّ دَعَوُا اللهَ دونَ غيرِهِ، فحكَى اللهُ تعالى عنهُم ذلكَ إنكارًا وتعجيبًا لخلقِهِ[3]، وفي ذلكَ مِنَ التَّنبيهِ على مناقضتِهم وتعكيسِهم ما لا يَخفى[4].

فائدةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ ﴿فَإِذَا﴾:

عُبِّرَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 303، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 209.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 404.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45.

بـيـانُ أنّـه لا مَفْزَعَ للإنسانِ إلّا بالـلّـجـوء للرّحمن

دَعَانَا﴾؛ لبيانِ ترتُّبِ دعاءِ الإنسانِ ربَّهُ، على مسِّ الضُّرِّ لهُ، ترتُّبًا جازمًا؛ إذ لا مَفْزَعَ للإنسانِ في ساعةِ الشِّدَّةِ إلّا اللّهُ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّقبيحِ لحالِ المشركِ الَّذي يُعرِضُ عنِ اللّهِ في الرَّخاءِ، ويُقبِلُ عليهِ في الشِّدَّةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دونَ (إنْ):

المُعرِضُ عنِ اللهِ مُستوجِبٌ لضُرّه وبَلواه

عُبِّرَ بـ(إذا) دونَ (إنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِهِ، والمرادُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ الإنسانَ يستحقُّ أنْ يمسَّهُ كلُّ ضررٍ؛ لبُعدِهِ عنِ الحقِّ، وارتكابِهِ الضَّلالاتِ، و(إذا) أنسبُ بذلكَ[1]، وفي ذلك تأكيدٌ لعدل الله في الجزاء والعقاب، انطلاقًا منَ الحيثيات والأسباب، إذ دعوتُه لله تعالى في الضّرّاء، والإعراضُ عنه في السّرّاء دليلٌ على سفَهِ تمييزه وغيابِ عقله وخطئِه في وضع الشّيء في موضعه اللّائقِ به دون النّأي به عن أصله المعتاد وسبيلِه المُرتادِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمسِّ دون غيره:

بـيـانٌ مفصحٌ عن خَلْقِ العباد بضعفِ التّحمّلِ والاعتقادِ

عُبِّرَ بالمسِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإنسانَ بمجرَّدِ أنْ ينالَهُ شيءٌ مِنَ الضُّرِّ وإنْ قلَّ يفزعُ إلى اللّهِ تعالى، وفي ذلكَ تنبيهٌ على ضعفِهِ، وأنَّهُ لا غِنى لهُ عن ربِّهِ الَّذي يُبارزُهُ بالعصيانِ.

نكتةُ صيغةِ الماضي ﴿مَسَّ﴾:

مناسبةُ الماضيّ للحاق الضُّرّ بالمُعرِض من فصيح الدّلالة

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ لأنَّهُ لمّا كانَتْ (إذا) للجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، غُلِّبَ معَها لفظُ الماضي؛ لأنَّهُ أنسبُ بالقطعِ بحسَبِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على

(1) التّفتازانيّ، المطوّل: 1/ 661.

الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تَقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ مسَّ الضُّرِّ أمرٌ مقطوعٌ بهِ، وكذلكَ لجوءُ المسوسِ إلى اللهِ ﷻ بالضَّراعةِ والدُّعاءِ.

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾:

وصـفُ الجنسِ بـوصـفِ غـالـبِ أفـــرادِهِ، مبينٌ عن مراده

يحتملُ تعريفُ الإنسانِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾، أنْ يكونَ للجنسِ، فيكونُ الكلامُ إخبارًا عنِ الجنسِ بما يغلبُ فيهِ، وإلّا فبعضُ أفرادِهِ ليسوا كذلكَ[1]. ولئن ورد أنّها نزلت في حذيفة بن المغيرة، فإنّ هذا الوصفَ معهودٌ في الإنسان على العموم، حيث يدعو الله ويرجعُ إليه إذا عظُم خطبُه، وأُحيط به من كلّ جانب، وعلمَ أن لا ملجأ منَ اللهِ إلّا إليه، دعاه مع ما يصدر منه من كفرٍ مناوأةً وضلالةً، وقد قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: 90 - 91]. ويحتملُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للعهدِ، ويُحمَلُ على الكافرِ الَّذي يشمئزُّ قلبُهُ إذا ذُكِرَ اللهُ وحدَهُ... إلخ[2].

نكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

العنايةُ بمسِّ الضُّرِّ للإنسانِ مهمّةٌ في الدّلالة والبيان

قُدِّمَ المفعولُ ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ على الفاعلِ ﴿ضُرٌّ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ - وهو الإنسانُ المسوسُ - والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وهو الضُّرُّ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ تقبيحِ شأنِ الإنسانِ الَّذي لا يعرفُ اللّهَ إلّا في الشِّدَّةِ.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿ضُرٌّ﴾:

مناسبةُ التَّقليلِ للـلـفـظِ المـسِّ، مفيدةٌ في الدّلالة

تنكيرُ ﴿ضُرٌّ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ للتَّقليلِ، والمعنى: فإذا مسَّ الإنسانَ شيءٌ قليلٌ مِنَ الضُّرِّ دعانا، وفي التَّقليلِ مناسبةٌ للفظِ المسِّ المُنْبئِ عنِ القلَّةِ أيضًا[3].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 258.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 544.
(3) التّفتازانيّ، المطوّل: 1/ 661.

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ:

لا يُدْعَى في الشَّدائدِ العظامِ إلّا العظيمُ

جيءَ بضميرِ العظمةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ لتفخيمِ شأنِ المدعوِّ ﷻ في المقامِ الَّذي يظهرُ فيهِ ضعفُ البشرِ، ويعتصمونَ بذي العظمةِ والجلالِ؛ لكشفِ ما بهم مِنْ ضُرٍّ، ويتركُ الكفرةُ دعاءَ آلهتِهم الَّتي كانوا يستبشرونَ بذكرِها[1].

قال البقاعيُّ: "ولفتُ القولِ إلى مظهرِ العظمةِ دالٌّ على أنّ أغلبَ النّاسِ، لا يُرجى اعترافُه بالحقّ وإذعانُه لأهلِ الإحسانِ إلّا إذا مُسّ بأضرارٍ، فقال: ﴿دَعَانَا﴾ عالمًا بعظمتِنا دونَ آلهتِه، مع اشمئزازِه من ذِكرِنا واستبشارِه بذِكرِها"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأداةِ ﴿ثُمَّ﴾:

قُبْحُ نسيانِ الضُّرِّ، ووجوبُ نسبةِ النِّعَمِ إلى المُنعِمِ

لمّا كانَ الضُّرُّ الَّذي مسَّ الإنسانَ عظيمًا، يَبْعُدُ الخلاصُ عنهُ، مِنْ جهةِ أنَّهُ لا حيلةَ لمخلوقٍ في دفعِهِ؛ أشارَ إلى عظمتِهِ وطولِ زمنِهِ بأداةِ التَّراخي، فقالَ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾، مُقبِّحًا عليهِ نسيانَهُ للضُّرِّ معَ عِظَمِهِ في نفسِهِ، ومع طولِ زمنِهِ[3].

ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعادِ نسبةِ الإنسانِ الإيتاءَ إلى نفسِهِ، بعدَ سبقِ دعائِهِ للّهِ ﷻ، بل ينبغي عليهِ نسبةُ النِّعَمِ إلى المُنعِمِ بها.

فائدةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ ﴿إِذَا﴾:

سوءُ معاملةِ المخلوقِ الجاحدِ، معَ خالقِهِ الواحد

عُبِّرَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾؛ لبيانِ ترتُّبِ نسبةِ الإنسانِ الجاحدِ إيتاءَ النِّعَمِ إلى نفسِهِ على إعطائِهِ النِّعَمَ مِنَ اللّهِ ترتُّبًا جازمًا، وفي ذلكَ تنصيصٌ على سوءِ معاملتِهِ معَ مولي النِّعَمِ ﷻ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

عُبِّرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 528.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 528.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 528.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِهِ، والمقصودُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ إعطاءَ اللهِ تعالى النِّعَمَ للخلقِ مؤمنِهم وكافرِهم أمرٌ مقطوعٌ به، إذ هو أثرٌ مِنْ آثارِ الرُّبوبيَّةِ والقيّوميَّةِ.

نِعَمُ اللهِ سابغةٌ لا تنقطعُ، لأنّها دليلٌ على قَيّوميّتِه

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كانَتْ ﴿إِذَا﴾ للجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ غُلِّبَ معَها لفظُ الماضي؛ لأنَّهُ أنسبُ بالقطعِ بحسَبِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، والمقصودُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ تخويلَ النِّعَمِ مقطوعٌ بهِ، وكذلكَ قولُ هذا الكَنودِ الجاحدِ.

بيانُ أنّ إحسانَ الرَّبِّ وإساءةَ الجاحدِ إيقانٌ

براعةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ:

جيءَ بضميرِ العظمةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾؛ لتفخيمِ شأنِ التَّخويلِ بأنَّهُ صادرٌ عنِ العظيمِ ﷻ[1]، الَّذي لا ينقطعُ إحسانُهُ عن خلقِهِ، وفيهِ أيضًا إشعارٌ بأنَّ تعقيبَ الضُّرِّ بهذا الإنعامِ، لا يَقدرُ عليهِ إلّا مَنْ كانَ متَّصفًا بصفاتِ العظمةِ والجلالِ.

لا يقدرُ على تعقيبِ الضُّرِّ بالإنعامِ إلّا ذو الجلالِ والإكرامِ

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿نِعْمَةً﴾:

تنكيرُ ﴿نِعْمَةً﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ للتَّقليلِ، أي: خوَّلناهُ شيئًا مِنَ النِّعَمِ وقسمًا منها[2]، سواءٌ بدفعِ الضُّرِّ أو بغيرِهِ ممّا يَسُرُّ[3]، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِ الإنسانِ الجاحدِ بأنَّ تخويلَ شيءٍ مِنَ النِّعَمِ يحملُهُ على نسبةِ الإنعامِ لنفسِهِ، وجحدِ فضلِ اللهِ تعالى.

الانشغالُ بالنِّعمةِ عنِ المُنعِمِ جحودٌ وضلالٌ

بلاغةُ الطِّباقِ في مَدرجِ السّياقِ:

في الجمعِ بينَ الضُّرِّ والنِّعمةِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِذَا مَسَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 528.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 209.

ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾، رِعايةٌ للطِّباقِ بينَهما؛ إذِ الضُّرُّ يدلُّ على ما فيهِ شرٌّ، والنِّعمةُ تدلُّ على ما فيهِ خيرٌ، وفي الجمعِ بينَهما بيانٌ لحالِ الإنسانِ في حالتَيِ العُسْرِ واليُسْرِ، ولكيفيَّةِ تعاملِهِ معَ خالقِهِ ﷻ في كلٍّ منهما.

ملمحُ تقلُّبِ حالِ الإنسانِ بينَ العُسْرِ واليُسْرِ

بلاغةُ الوصفِ بقوله ﴿مِّنَّا﴾:

﴿مِّنَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ صفةٌ لـ ﴿نِعْمَةً﴾[1]، وفي هذا الوصفِ تأكيدٌ للتَّفضُّلِ الَّذي يشتملُ عليهِ لفظُ التَّخويلِ، وتنبيهٌ على أنَّهُ ليسَ لأحدٍ غيرِ اللهِ تعالى شائبةُ مَنٍّ وفضلٍ[2]. وعليه فقولُه: ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾، تعني أعطيناهُ إيّاها تفضُّلا، فإنَّ التَّخويل مُختصٌّ به، لا يُطلقُ على ما أُعطي جزاءً[3].

الفضلُ للهِ وحدَهُ، ومنه الإنعامُ لا من سواه

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ:

عُبِّرَ بضميرِ العظمةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مِّنَّا﴾؛ لزيادةِ التَّنبيهِ على عظمةِ العطاءِ والإنعامِ الصّادرِ عنهُ ﷻ، وللتَّنصيصِ على أنَّهُ لولا عظمةُ اللهِ تعالى لَما كانَتْ هذهِ النِّعَمُ[4].

بيانُ أنّه لولا المُنعِمُ الأعظمُ، لَما كانَتِ النِّعَمُ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿قَالَ﴾:

معنى قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾: اعتقدَ ذلكَ، فجرَى في أقوالِهِ؛ إذِ القولُ على وفْقِ الاعتقادِ[5]، وكلامُ المرءِ دليلٌ على ما يَجولُ في قلبِهِ ونفسِهِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ هذا الجاحدَ، قد اعتقدَ جُحودَ فضلِ اللهِ قبلَ أنْ يتلفَّظَ بما يدلُّ عليهِ، ولو كانَ كلامُهُ غيرَ مطابقٍ لاعتقادِهِ لربَّما هانَ الخَطْبُ.

كلامُ المرءِ الظّاهرُ مُنبئٌ عمّا في السّرائر

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم: 8/ 430.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 258.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 35.

بلاغةُ القصرِ في السّياق:

الجاهلُ ينسبُ الفضلَ لنفسِهِ، ويَنسَى اللهَ في عَلياءِ قُدسِه

الظّاهرُ أنَّ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ للقصرِ، وهو مِنْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، والمعنى: ما أوتيتُ الَّذي أوتيتُهُ مِنْ نعمةٍ لشيءٍ مِنَ الأشياءِ إلّا لأجلِ علمٍ منّي بطُرُقِ اكتسابِهِ، وهو يقولُ ذلكَ إذا ذُكِّرَ بنعمةِ اللّهِ عليهِ، فيكونُ قصرَ قلبٍ لكلامِ مَنْ يقولُ لهُ: إنَّ ذلكَ مِنْ رحمةِ اللّهِ تعالى بهِ[1]، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِهِ وحالِهِ؛ إذ يُنكِرُ فضلَ اللّهِ عليهِ، ولا ينسبُ النِّعمةَ إلى مُفيضِها[2]. ويحتملُ على بُعْدٍ أنْ تكونَ (ما) في ﴿إِنَّمَآ﴾ موصولةً، والضَّميرُ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائدٌ عليها، أي: إنَّ الَّذي أوتيتُهُ على علمٍ[3]، وعليهِ فلا قصرَ في الكلامِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

الجاهلُ واثقٌ بنفسِهِ، غافلٌ بجحودِه عن عطاءِ ربِّهِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإيتاءِ ووقوعِهِ قبلَ زمنِ النُّطقِ بهذا الكلامِ، وللتَّنبيهِ على فَرْطِ وُثوقِ الجاحدِ بتحقُّقِ الإيتاءِ مِنْ قِبَلِ علمِهِ وكَسْبِهِ، لا مِنْ قِبَلِ اللّهِ تعالى، وذلكَ علامةٌ مِنْ علاماتِ انطماسِ البصيرةِ.

نكتةُ البناءِ للمفعولِ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

الجاحدُ مفتونٌ بنفسِهِ، وبالنِّعمةِ الطّارئة

بُنيَ فعلُ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ للمفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ الإنسانَ الجاحدَ لا نظرَ لهُ في تعرُّفِ المُعطي ليشكرَهُ، وإنَّما نظرُهُ في عظمةِ النِّعمةِ وعظمةِ نفسِهِ فقطْ[4]، وكأنَّهُ يُري غيرَهُ أنَّ كونَهُ هو المُؤتيَ بكسبِهِ وعقلِهِ أمرٌ جليٌّ ظاهرٌ، لا يحتاجُ إلى التَّنصيصِ عليه.

وجهُ تذكيرِ الضَّميرِ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

جيءَ بالضَّميرِ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ مُذكَّرًا معَ أنَّهُ راجعٌ إلى النِّعمةِ؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 267، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 35.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 529.
(3) السّمين، الدّر المصون: 9/ 432.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.

النِّعمةُ بمعنى الإنعامِ، مفيدةٌ لبيانِ سياقِ الكلام

لأنَّها بمعنى الإنعام، أو لأنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى (ما)، في ﴿إِنَّمَآ﴾ على اعتبارِها موصولةً[1]، أو لأنَّ معنى قولِه: ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾: شيئًا مِنَ النِّعَمِ وقسْمًا منها[2]، فالتّذكيرُ باعتبارِ الشَّيءِ والقِسْمِ، أو لأنَّهُ على تأويلِ حكايةِ مقالتِهم، بأنَّها صادرةٌ عنهُم في حالِ حضورِ ما بينَ أيديهِم مِنَ النِّعَمِ، فهو مِنْ رجوعِ الضَّميرِ إلى ذاتٍ مُشاهَدةٍ، فالضَّميرُ بمنزلةِ اسمِ الإشارةِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ:

الجاهلُ يرَى النِّعَمَ إلزامًا لا إنعامًا

اختيرَ الإيتاءُ دونَ الإعطاءِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّهُ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، ولأنَّ فيه معنى الوجوبِ والإلزامِ[4]، فيكونُ في التَّعبيرِ بهِ تنبيهٌ على استعظامِ الجاحدِ شأنَ النِّعمةِ الَّتي أوتيَها، وعلى أنَّهُ يرَى أنَّها واجبةٌ لهُ، ومستحَقَّةٌ لهُ بحسَبِ علمِهِ المزعومِ.

دلالةُ الحَرْفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في السّياقِ:

شأنُ الجاهلِ استعظامُ علمِه، وظنُّه أنَّه سببُ الإيتاءِ

عُبِّرَ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الجاحدَ المعاندَ لفَرْطِ غرورِهِ وثقتِهِ بما أوتيَ؛ يرَى أنَّهُ قدِ استعلَى على العلمِ استعلاءً مُتمكِّنًا[5]، حتَّى كأنَّ العلمَ صارَ مَطيَّةً لهُ. ويحتملُ أنْ تكونَ (على) للتَّعليلِ، والمعنى: لأجلِ علمٍ، أي: بسببِ علمٍ[6].

بلاغةُ الحالِ في ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾:

بيانُ المبالغةِ في ادّعاءِ استحقاقِ الجاحدِ النِّعَمَ بنفسِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ المرفوعِ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 537.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 459.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 35.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 248 - 249.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 35.

أي: على علمٍ منّي أنّي سأُعطاهُ؛ لِما فيَّ مِنَ الفضلِ والاستحقاقِ، أو على علمٍ مِنَ اللّهِ بي وباستحقاقي، أو على علمٍ منّي بوجوهِ الكسبِ[1]. وأيًّا ما كانَ ففيهِ ما لا يخفَى مِنَ المبالغةِ في ادِّعاءِ الاستحقاقِ. وأمّا إنْ كانَتْ (ما) في ﴿إِنَّمَآ﴾ موصولةً، فهو خبرُ (إنَّ)[2].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿عِلْمٍ﴾:

تنكيرُ ﴿عِلْمٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ للتَّعظيم، والمعنى: على علمٍ عظيمِ الشَّأنِ، وإنْ كانَ المعنى: على علمٍ منّي بطُرُقِ الكسبِ والاجتهادِ[3]؛ ففي هذا التَّنكيرِ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على أنَّ الكِبْرَ قد نَفَخَ في خيشومِ هذا الإنسانِ الجاحدِ، حتَّى حسبَ الوَرَمَ شَحْمًا.

الكِبْرُ المُستولي على نفسِ الجاحدِ، يَطمسُ بصيرتَه

سرُّ عدمِ ذكرِ (عِنْدي) كما في القصصِ:

خولِفَ بينَ قولِهِ تعالى هنا: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وبينَ قولِ قارونَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: 78]، فلم يُذكَرْ هنا: (عِنْدي)؛ لأنَّ المرادَ بالعلمِ هنا مجرَّدُ الفِطْنةِ والتَّدبيرِ، وأُريدَ هناكَ علمُ صوغِ الذَّهبِ والفضَّةِ الَّذي اكتسبَ بهِ قارونُ مِنْ معرفةِ تدابيرِها مالًا عظيمًا، وهو علمٌ خاصٌّ بهِ، وأمّا ما هنا، فهو العلمُ الَّذي يوجدُ في جميعِ أهلِ الرَّأيِ والتَّدبيرِ[4]، حيث قالَ إنَّما أوتيتُهُ عَلى عِلْمٍ منّي بوجوهِ كسْبِه، أو بأنّي أعطيتُه؛ لِما لي مِن استحقاقه"[5].

أثرُ العِنديّةِ في السّياقِ مفيدٌ في المعنى وجودًا وعدمًا

معنى الحرفِ ﴿بَلْ﴾ في السّياق:

﴿بَلْ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ، وهو إبطالٌ لزعمِهم أنَّهم أوتوا ذلكَ بسببِ علمِهم

النِّعَمُ فضلٌ مِنَ اللهِ وامتحانٌ، لا كسبٌ مِنَ الانسان

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133، والطّيبي، فتوح الغيب: 13/ 403.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 536، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 342.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 35.
(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 8/ 221.

وتدبيرِهم، أي: بل إنَّ النِّعمةَ الَّتي أوتوها إنَّما آتاهم اللهُ إيّاها؛ امتحانًا واختبارًا أيشكرونَ أم يكفرونَ[1]، والمعنى: " أي: ليس ذلك الذي أعطيناك لِما ذكرتَ، بل هو محنةٌ لك، واختبارٌ لحالك أتشكر أم تكفر؟ "[2]، وفي ذلك تذكير بأهميّة شُكْر المُنْعِم ﷻ.

سرُّ تأنيثِ الضَّميرِ ﴿هِيَ﴾:

أُنِّثَ ضميرُ ﴿هِيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ حملًا على لفظِ النِّعمةِ، ولأنَّ الخبرَ - وهو ﴿فِتْنَةٌ﴾ - مُؤنَّثٌ[3]، وفي التَّأنيثِ تحقيرٌ للنِّعمةِ بالنِّسبةِ إلى قدرتِه سبحانَهُ، ولأنَّها أدَّتْ إلى الغرورِ، وتذكيرُها فيما سبقَ تعظيمٌ لها لإيجابِ شكرِها[4]. أو المعنى: الحالةُ أوِ الإتيانةُ فتنةٌ[5]." قال الفرّاءُ: أُنّث الضّميرُ في قوله: ﴿هِيَ﴾ لتأنيث الفتنة، ولو قال: بل هو فتنة لجاز، وقال النّحّاس: بل عطيّتُه فتنةٌ. وقيل: تأنيثُ الضّمير باعتبار لفظِ الفتنة، وتذكيرُ الأوّل في قوله: أوتيتُه باعتبار معناها"[6]. ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى القولِ المستفادِ مِنْ ﴿قَالَ﴾، على طريقةِ إرجاعِ الضَّميرِ إلى المصدرِ المأخوذِ مِنَ الفعلِ، وإنَّما أُنِّثَ ضميرُهُ باعتبارِ الإخبارِ عنهُ بلفظِ ﴿فِتْنَةٌ﴾، أو على تأويلِ القولِ بالكلمةِ، والمرادُ: أنَّ ذلكَ القولَ سببُ فتنةٍ أو مُسبَّبٌ عن فتنةٍ في نفوسِهم[7].

بيانُ أنّ النِّعمة سببُ ابتلاءٍ للمُنعَمِ عليهِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفتنةِ:

في التَّعبيرِ بالفتنةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ لطافةٌ، وذلكَ أنَّ المرادَ بها هنا الابتلاءُ والامتحانُ[8]، واللهُ تعالى عالمٌ

جَعْلُ النِّعَم فتنةً، ملمحٌ في البلاغة مفيدٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 36.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 12/ 128.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 186.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(5) السّمين، الدّر المصون: 9/ 433.
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 537.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 36.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45.

بخلقِهِ، وغنيٌّ عنِ اختبارِهم، فالفتنةُ دالَّةٌ على حالةٍ فيهِم تُشبِهُ حالةَ الاختبارِ لمقدارِ علمِهم باللهِ وشكرِهم إيّاهُ[1]، فيكونُ في الكلامِ استعارةٌ، وأيضًا في الإخبارِ عنِ النِّعمةِ بأنَّها فتنةٌ مبالغةٌ؛ لأنَّ النِّعمةَ آلةٌ لها[2]، فيكونُ لفظُ الفتنةِ مِنْ قَبيلِ المجازِ المرسَلِ. وأيًّا ما كانَ ففي التَّعبيرِ بها إيذانٌ بأنَّ ذلكَ ليسَ مِنْ بابِ الإيتاءِ المُنبئِ عنِ الكرامةِ، وإنَّما هو أمرٌ مباينٌ لهُ بالكلّيَّةِ[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿فِتْنَةٌ﴾:

تنكيرُ ﴿فِتْنَةٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: بل هي فتنةٌ عظيمةُ الشَّأنِ، وأيُّ فتنةٍ أعظمُ مِنَ الفتنةِ الَّتي يَميزُ اللهُ بها الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، والجاحدَ مِنَ الشّاكرِ؟!

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ مِنَ الثَّباتِ والدَّوامِ، فتفيدُ أنَّ كونَ النِّعمةِ فتنةً أمرٌ ثابتٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على الاعتبارِ والتَّيقُّظِ لحِكَمِ اللهِ تعالى في خلقِهِ، وعلى البُعدِ عنِ الإنكارِ والجحودِ.

بيانُ أنّ ابتلاءَ اللهِ لخلقِهِ بالنِّعَمِ أمرٌ ثابتٌ منذُ القِدمِ

براعةُ الإيجازِ في قوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾:

بيَّنَ ﷻ قُبْحَ طريقةِ الجاحدينَ، فيما هم عليهِ عندَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ بكلامٍ وجيزٍ فصيحٍ، فقالَ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾[4]، ولم يقلْ: (بل أوتيتَهُ فتنةً). وهذهِ الكلماتُ بوَجازتِها، تَطوي كلَّ ما يُؤتاهُ العبدُ مِنَ الدُّنيا ونعيمِها، فما المالُ والجاهُ والسُّلطانُ ونحوُ ذلكَ مِنْ متاعِ الدُّنيا إلّا امتحانٌ قصيرٌ كقِصَرِ هذهِ العبارةِ. يضافُ إلى ذلكَ نكتةُ الجملةِ الاسميَّةِ كما تقدَّمَ.

بين قِصرِ امتحانِ الدُّنيا، وقِصرِ العبارةِ تناسبٌ بليغٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 36.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 268.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 258.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.

معنى الواوِ في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للاستئنافِ، والغرضُ مِنْ هذا الاستئنافِ بيانُ أنَّ أكثرَ النّاسِ يُفْتتنُ، ولا يدركُ العِبْرةَ في النِّعَمِ[1].

فائدةُ الاستدراكِ بلفظ (لَكِنَّ):

الاستدراكُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ناشئٌ عن مضمونِ جملةِ ﴿إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ﴾، أي: لكنْ لا يعلمُ أكثرُ النّاسِ - ومنهم القائلونَ - أنَّهم في فتنةٍ بما أوتوا مِنْ نعمةٍ، إذا كانوا مِثلَ هؤلاءِ القائلينَ الزّاعمينَ أنَّ ما هم فيهِ مِنْ خيرٍ نتيجةُ مَساعيهم[2].

العُقلاءُ لا تَشغلُهمُ النِّعَمُ عنِ التَّدبُّرِ في كنهها

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

ضميرُ ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِنَ المقامِ غيرِ مذكورٍ في الكلامِ؛ إذ لم يتقدَّمْ ما يناسبُ أنْ يكونَ لَهُ مرجعًا، والمرادُ بهِ النّاسُ، أي: لكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمونَ أنَّ بعضَ ما أوتوهُ مِنَ النِّعَمِ في الدُّنيا يكونُ لهُم فتنةً، إذا تلقَّوهُ بقلَّةِ الشُّكرِ، وما يُفضي إلى الكفرِ، فدخلَ في هذا الأكثرِ جميعُ المشركينَ الَّذينَ يقولُ كلُّ واحدٍ منهُم: إنَّما أوتيتُهُ على علمٍ[3]، وذلك أنّ " أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ ولا يفهمون فتنتَنا واختبارَنا؛ لذلك يَنهمكون في بحرِ الكُفرانِ والطّغيانِ، وليس هذا القولُ مخصوصًا لهؤلاءِ الكفرةِ التّائهينَ في تيهِ الغفلةِ والكُفرانِ، بل قَدْ قالَها أي الكلمةَ المخصوصةَ التّي هي جملةُ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ﴾، عمومُ الكافرينَ المسرفينَ الَّذينَ مضَوا مِنْ قَبْلِهِمْ مثل قارونَ وغيرِهِ"[4].

أكثرُ الأنامِ غافلونَ عنِ الامتحانِ بالإنعام

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 530.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 36.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 36.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 250.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفعليِّ:

قُدِّمَ المُسندُ إليهِ ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقوّي الحُكم، أي: تَقوّي نسبةِ عدمِ العلمِ لأكثرِ النّاسِ، كأنَّهُ قد قيلَ مرَّتين: ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ.

تـأكـيـدُ انـتـفـاءِ العلمِ عن أكثرِ النّاسِ

سرُّ التعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ عدمِ العلمِ وتجدُّدِه، لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ، أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، والمعنى: لا يتجدَّدُ لهُم علمٌ أصلًا؛ لأنَّهم طُبِعوا على الجهلِ والغَباوةِ[1] إلّا مَنْ تداركَهُ اللّهُ تعالى برحمتِه.

أهـلُ الجحودِ مجبولونَ على الجهلِ

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إيجازًا، لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، والمعنى: ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ أنَّ هذا التَّخويلَ إنَّما كانَ لأجلِ الاختبارِ[2]. يُضافُ إلى ذلكَ ما في الحذفِ مِنْ رِعايةِ الفواصلِ. ويحتملُ أنْ يكونَ الفعلُ المتعدّي قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازمِ، والمعنى: ولكنَّ أكثرَهم ليسوا مِنْ أهلِ العلمِ، وفي ذلكَ تقبيحٌ شديدٌ لحالِهم، ببيانِ أنَّهم ليسوا مِنْ زُمرةِ العلماءِ.

الجهلُ بحقيقةِ التَّخويلِ مفيدٌ في بيانِ التّأويلِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعطاءُ والتَّخويلُ:

التَّخويلُ أخصُّ مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّهُ الإعطاءُ على سبيلِ التَّفضُّلِ[3]، ومِنْ غيرِ طلبِ مجازاةٍ[4]؛ فالإعطاءُ الَّذي هو في مقابلةِ الأجرِ

التّخويلُ تفضّلٌ في العطاءِ دون جـزاءٍ وهـو غيرُ الإعطاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 530.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 186.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 536، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 185.

والعِوَضِ لا يُسمَّى تخويلًا[1]. وقد عُبِّرَ بالتَّخويلِ هنا؛ لأنَّ عطاءَ اللهِ تعالى تفضُّلٌ منهُ، وهو لا يطلبُ عِوَضًا عليهِ.

الفتنةُ والاختبارُ:

الفتنةُ امتحانٌ بليغٌ، والاختبارُ تمحيصٌ دقيقٌ

الفرقُ بينَ الفتنةِ والاختبارِ: أنَّ الفِتْنةَ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، وأصلُها: عَرْضُ الذَّهَبِ على النّارِ؛ ليتبيَّنَ صلاحُهُ مِنْ فسادِهِ، وتكونُ في الخيرِ والشَّرِّ[2]. وقد عُبِّرَ بها هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المقصودَ مِنَ النِّعمةِ تمييزُ الشّاكرينَ مِنَ الجاحدينَ.

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 545.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 396.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»